الباب الثالث

الفن الإسلامى فى مصر

obeikandl.com

مقدمة :

عراقة الفن المصرى لا تحتاج إلى دليل أو برهان ولا يختلف فيها اثنان، إذ عَرف المصريون أنواعًا مختلفة من النشاط الفنى عبر العصور التاريخية، وتوالت حلقات الفن المصرى متتابعة منذ أقدم العصور التاريخية حتى يومنا هذا.

سار الفن المصرى على مر التاريخ متأثرًا بالتغيرات الجوهرية التى غيّرت مجرى التاريخ والفن معا فى نفس الوقت، وكانت العصور الفنية المعروفة، هى العصر الفرعونى واليونانى والرومانى والقبطى والإسلامى.

ويُلاحظ أن هناك عامين هامين فى تاريخ الفن المصرى بصفة عامة وفى تاريخ الفن المصرى الإسلامى بصفة خاصة - أولهما عام ٦٤١ م، وثانيهما عام ٩٦٩ م.

ففى العام الأولى استطاع عمرو بن العاص فتح مصر، وكان هذا إيذانًا ببداية عهد جديد يختلف عن العهود السابقة دينا، ولغة وثقافة.

فقد أصبح دين الغالبية العظمى من أهل البلاد الإسلام - ولغة أهلها العربية، وثقافتهم إسلامية، وكذلك فنهم، فقد غدا ذا طابع خاص يختلف اختلافًا بَيّنًا عن فن العصور السابقة.

أما التاريخ الهام بالنسبة للفن المصرى أى عام ٩٦٩ م - ١١٧١م، فيمثل انتقال الحكم إلى أسرة جديدة وفدت من أفريقية وهم الفاطميون، وكان هذا بمثابة عهد جديد من عهود الاستقلال إذ تخلصت مصر من تبعيتها للخلافة الإسلامية، تلك التبعية التى ظلت منذ الفتح العربى لمصر إلى أن جاء الفاطميون ولم تستطع مصر أن تتخلص منها تخلصا كاملا فى عهد الطولونيين.

وفى عهد الفاطميين يشهد الفن المصرى الإسلامى تطورا كبيرا وتقدما ملحوظا وازدهارًا واضحًا عما كان عليه.

وقد ذهب كثير من الكتّاب إلى اعتبار فن العصر الأيوبى مرحلة انتقال بين الفن الفاطمى والفن المملوكى، وأن قِصَر المدة التى ساد فيها الحكم الأيوبى لم تُتِح للفن فى هذا العهد أن يكتسب صفات واضحة مميزة له، وكان لهذا الاتجاه أثره فى عدم العناية بالمنتجات الفنية خلال العصر الأيوبى ودراستها الدراسة الواجبة لاستخلاص الميزات الفنية الأيوبية.

الفصل الأول

دولة المماليك فى مصر

من ٦٤٨ - ٩٢٢ هـ (١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

تمكن المماليك من حكم مصر مدة تزيد على القرنين ونصف القرن بانفرادهم بالسلطة على أسرتين، المماليك البحرية من ٦٥٠ هـ - ٧٨٤ هـ/ ١٢٥٢ - ١٣٨٢ ثم المماليك البرجية أو الشراكسة من ٩٢٣ هـ، ١٥١٧ م.

بدأ استخدام المماليك بكثرة فى مصر فى عهد الدولة الطولونية من ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م إلى ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥ م فقد اشترى أحمد بن طولون المماليك ليقوى بهم جيشه. ووصل عددهم إلى أربعة وعشرين ألف مملوك.

ثم جاءت الدولة الإخشيدية من ٣٢٣ - ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ - ٩٦٩ م. وفى عهدها كان معظم الجيش من الأتراك. وبلغ عدد المماليك ثمانية آلاف مملوك. فالمماليك إذا طائفة من الأرقاء المُشْتَرَيْن بالأموال بغرض تطعيم الجيش بهم وتقويته. ثم ينقلون إلى مصر، ذلك البلد الطيب الذى قُدِّر لهم فيما بعد أن يقبضوا على زمام الحكم فيه، دون أن تربطهم به صلة وطن أو قرابة.

ولم يكن عجبا أن يُعاملوا أهله معاملة البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة على أمرها، إذ لم يكن يعنيهم من شأنه وشأن أهله سوى التفنن فى ابتزاز الأموال، واستدرار الخيرات، فتطورت حياتهم نحو الحضارة والترف وألِفوا النعيم ونضارة العيش، وبلغوا فى ذلك الغاية، حتى أصبح حكمهم القائم على التوحش والهمجية سلسلة متصلة من الفوضى والاختلال، والمكايد المراد بها تعزيز المطامع الذاتية، والوصول إلى كرسى الحكم مهما كان الثمن، ومهما كانت التضحيات.

وقد كانت الحالة الاقتصادية مزدهرة فى بداية حكم المماليك عندما سطع نجم الأيوبيين سنة ١١٧١ م على أفق الصعود، وعلا حتى بلغ أوجهه فى عهد الأول من سلاطينهم «صلاح الدين» وسمت مصر إلى أعلى درجة من العلم والعرفان، واتسع نطاق تجارتها حتى عادت إلى ما كانت عليه فى عهد البطالمة من الرواج.

وتوثقت الروابط التجارية بينها وبين الهند من جهة، وبينها وبين بلاد حوض البحر المتوسط من جهة أخرى، فكان هذا الرواج الاقتصادى أحد العاملين الهامين فى لفت الأنظار إلى هذه المنطقة فى تلك الفترة من التاريخ.

أما ثانى العاملين فى توجيه نظر العالم إلى أهمية هذه المنطقة، فهو الحروب الصليبية، التى كان من أهم نتائجها نمو العلاقات التجارية بين الشرق والغرب. واستغل سلاطين المماليك ذلك المورد الخصب فاستثمروا أموالهم فى التجارة، واحتكروا بعض الأصناف كالتوابل ليبيعوها للفرنج دون تدخل التجار الوطنيين أو منافستهم.

وعن هذا المصدر بجانب ضرائب مرور التجارة من آسيا إلى أوروبا عن طريق الأراضى المصرية جمعوا ثروات ضخمة. وظهر أثر هذه الثروة واضحا جليا فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر من احتفالات فخمة، وملابس ثمينة وحلى عديدة.

وما جاء فى وصف جهاز قطر الندى، دليل على الثراء الواسع، وإن كان فى نفس الوقت دليلا على استغلال أموال الشعب لصالح الحكام، ومن يتصل بهم، دون اهتمام كبير بمصالح الشعب أو حاجته الضرورية.

وقد تحدث الكثيرون عن هذا الجهاز «فاين دقمان» مثلا يصفه بأنه لم يَرَ مثله، ولا سمع به إلا فى وقته.

ويذكر المؤرخون بعض ما كان يضمه الجهاز من قطع الأثاث المزينة بحليات ذهبية متشابكة، تتدلى من فتحات تشبيكها حبات من الجواهر، والأحجار النفيسة، وكان الجهاز يضم مائة هاون ذهبية لدق العود والطيب، ومن حرير دمياط، ودبيق وتنيس.

ويعنى هذا ما كانت عليه مصر من تقدم فى مختلف صناعة المنتجات الخشبية والذهبية، والخزفية، ومنتجات النسيج المتنوعة والمنتجات الزجاجية.

وبالنسبة للعصر المملوكى أيضا نجد علاقة أقوى من مجرد التبادل التجارى فقد كان هناك علاقة مصاهرة بين أسرة قلاوون وأباطرة الصين، ولذلك تُنسب بعض المنسوجات المملوكية ذات التأثير الواضح بالأساليب الصينية إلى صناعة الصين نفسها، وأنها كانت هدية إلى قلاوون، وعن هذه المنسوجات اقتبس النساجون فى مصر فى العصر المملوكى بعض العناصر الزخرفية.

وقد شاهدنا أمثلة التبادل الفنى بين مصر والأندلس خلال العصر الفاطمى، وقد استمر هذا التبادل بين البلدين فى العصر المملوكى فنقل كل بلد عن الآخر بعض الأساليب الفنية فتأثرت أسبانيا بمصر فى التصوير وصناعة السجاد، وبعض أنواع الخزف وكذلك بعض الأساليب المعمارية باقتباس بعض عناصرها، كما تأثرت مصر بأسبانيا فى بعض ميادينها الفنية وفى زخرفة العمائر.

ويشهد العصر المملوكى نضوج الشخصية المصرية، وتتميز المنتجات الفنية بصفات لا يُخطئها أحد، ويبلغ الفن أقصى درجات الازدهار فى مختلف الميادين، ويخلف الفنانون روائع فنية

لا مثيل لها وحسبنا أن نشير فى هـذا المقام إلى المشكاوات وما بلغته من روعة وجمال فى الشكل والزخارف.

وقد ساعد الفنَّ على بلوغ هذه الدرجة – من الإتقان والتقدم الذى شاهدته البلاد وانتعاش التجارة أيضا وما ترتب على ذلك من صِلات بين مصر وغيرها من البلاد – تلك الصلات التى امتدت من الصين شرقا إلى الأندلس غربا، الأمر الذى ساعد على رواج هذه المصنوعات وسهَّل عملية التبادل الفنى بين مصر وبين هذين البلدين وما ينتج عن هذا من تبادل التأثيرات الفنية.

كما أن أشكال الملابس عند المصريين تغيرت وفقا لما رآه الناس من أزياء المماليك، نظرا لطول عهدهم فى مصر.

وعلى الرغم من أصل المماليك المتواضع، فإنهم يُدْهِشُون الدارس ببذخهم وترفهم، فقد حولتهم مصر الغنية، واستعداد الشعب المصرى المرح، وظهور النظم الإقطاعية الغربية عن طريق الاتصال بالأوروبيين فى الحروب الصليبية إلى ملوك ألف ليلة وليلة. فعرفت مصر فى عهدهم ألوانا من الترف والبذخ يفوق ما كان معروفا من قبل فى بلاط ملوك الفراعنة والبطالمة والطولونيين.

وأصبحت مصر قاعدة لإمبراطورية المماليك الواسعة التى ورثت نظمها عن الدول الإسلامية بمصر قبلها، ولاسيما عن الفاطميين الذين اتخذوا مصر قاعدة لهم، وكذلك عن النظم التى استوردوها من مواطنهم الأصلية، فهم فى غالبيتهم من الترك، غرباء عن منطقة الشرق الأوسط.

ولقد سعى المماليك إلى التقرب من الخلافة العباسية وعمل بيبرس على نقل الخلافة العباسية إلى مصر حين أسقطها المغول فى بغداد سنة ١٢٥٨ م، وأتى برجل من سلالة الخليفة العباسى حيث أسكنه القلعة، وجعله الخليفة الشرعى الأعلى للمسلمين.

ونتيجة لذلك فرض سلاطين المماليك لأنفسهم مقاما ساميا على ملوك العالم الإسلامى، باعتبارهم حماة الخلافة الإسلامية والمتمتعين ببيعتها.

وبالغ المماليك من حكام وأمراء فى التعالى على المصريين وإشعارهم بالتميز عليهم، يدل على ذلك أنهم لم يحاولوا الزواج من المصريات بل كانوا يختارون زوجاتهم من بنات جنسهم اللائى يُجْلَبن من الأسواق وعلى يد التجار. وكانت عزلتهم الاجتماعية هذه تشعرهم بأنهم غرباء عن البلاد. وهذه العزلة جعلتهم يحتفظون بأخلاقهم وطباعهم وعاداتهم على مر السنين دون أن يتأثروا بأخلاق أهل البلاد. لذلك نجد المماليك فى القرن السابع الميلادى لا يختلفون كثيرا فى عاداتهم وأخلاقهم وملابسهم عما كانوا عليه فى القرن العاشر الميلادى.

وإذا كان سلاطين المماليك قد عاشوا عيشة الترف والنعيم والبذخ، فإن ظروف الحياة المتغيرة وتضافر عوامل عدة أدت إلى اختلاف الحياة الاقتصادية فى أخريات العصر المملوكى لدرجة كبيرة.

فقد كان تعدد أنواع النقد المتداول، والتغيير المستمر للعملة، وظهور العملات الأجنبية من فضية وذهبية ذات القيمة الموثوق بها، والتى أحضرها معهم الفرنج بجانب انخفاض ماء النيل، وانتشار الأوبئة والطاعون، وكثرة الوفيات. كل هذا أدى إلى اختلال الحياة الاقتصادية فى مصر.

وزاد من أثر هذا الاختلال الاقتصادى فى نفوس الشعب أنهم رأوا المماليك يستأثرون لأنفسهم ولأصدقائهم بالحبوب والمواد الغذائية، مما زاد من أثر المجاعات التى نتجت عن إهمال الفلاحين للزراعة بسبب الضرائب الباهظة التى كانوا يتحملونها، فى محاولة لتعويض ما فقدته البلاد بسبب تحول التجارة عن الطريق البرى المصرى إلى طريق رأس الرجاء الصالح مما قطع عن مصر دخلا كبيرًا كانت تحصل عليه قبل اكتشاف هذا الطريق. كما أثر ذلك فى تعثر الصناعات القائمة وضعفها فى هذا التاريخ. ولم يكن من المنتظر أن يكون لدى سلاطين المماليك أية رغبة فى الإصلاح.

وبذلك بدأت الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الهبوط والانحدار، فكثرت الدسائس بين أمراء المماليك للسيطرة على السلطة. وتثبيت ركائز الدول الأجنبية للعمل على السيطرة على وادى النيل، وكان الخلل الاقتصادى، وانعدام الاستقرار الاجتماعى من أهم العوامل التى عجلت بسقوط دولة المماليك.

ومهما يكن من أمر فإن العصر المملوكى يشهد بنضوج الشخصية الفنية المصرية وتتميز المنتجات الفنية بصفات لم يُخطئها أحد، ويبلغ الفن أقصى درجات الازدهار - فى مختلف الميادين، ويخلف الفنانون روائع فنية لا مثيل لها، وحسبنا أن نشير فى هذا المقام إلى المشكاوات وما بلغته من روعة وجمال فى الشكل والزخارف. كما يعتبر عصر المماليك أيضا من أزهى عصور تاريخنا القومى، وما زالت آثاره المادية من فنون وصناعات تزخر بها المتاحف العالمية وعلى رأسها متحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

ومما يسترعى النظر فى عصر المماليك عناية سلاطينهم بالأزياء والملابس التى كانت تُحاك وتُطرز وتُزين بحوانيت الخياطين الرسميين (المطرزين) والخلعيين والفَرائين، وتُباع فى أحياء القاهرة وأسواقها التى تربو على الخمسين ومن أهمها سويقة أمير الجيوش على رأس حارة برجوان الممتدة من شارع المعز لدين الله بالجمالية الآن. وكانت على عهد المقريزى فى القرن

التاسع الهجرى/ والقرن الخامس عشر الميلادى، عامرة بالرفائين والحيّاكين وباعة الثياب المخيطة، وغير سويقة أمير الجيوش سوق الجوخيين، الذى أعِدّ لبيع الجوخ «المجلوب من بلاد الفرنج» لعمل الستائر وثياب السروج، وسوق الشرابشيين حيث تباع أغطية الرأس التى يلبسها السلطان والأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم «فكان بهذا السوق عدة تجار لشراء التشاريف والخلع وبيعها على السلطان فى ديوان الخاص وعلى الأمراء» وسوق الحوائصيين وتباع فيه حوائص الذهب والفضة التى يتمنطق بها الأجناد وسوق البخانقيين الذى تباع فيه الكوافى والطواقى لأمراء المماليك والصبيان والبنات بحيث كثر استعمال هذه الطواقى فى عصر المماليك الجراكسة للرجال والنساء على السواء، وسوق الخلعيين بالقرب من باب زويلة حيث تباع الثياب المخيطة الخليع وهى التى قد لُبست من قبل، أما سوق الأخفافيين فتباع فيه خفاف النساء ونعالهن فى حوانيت الأساكفة.

ولم تكن أزياء المماليك والأمراء من الأجناد لتستكمل زينتها بغير القسى والنشّاب والزرديات وآلات السلاح واللجم التى كانت تباع بين القصرين فى أسواق خاصة هى سوق السلاح وسوق المهامزيين وسوق اللجميين بالقرب من ضريح قلاوون الآن حيث كانت تقوم كذلك سوق القفصيات لبيع الخواتم والفصوص وأساور النساء معروضة على أقفاص صغار من حديد مشبك.

obeikandl.com

الفصل الثانى
المنسوجات المستخدمة فى مصر
وتطورها فى العصور المختلفة

صناعة النسيج هى صناعة أساسية ملازمة للإنسان ومتممة لكيانه الحيوى بوصفه إنسانا منذ أن تخلى عن أوراق الشجر وجلود الحيوان التى كانت تقية من تقلبات الجو، وتستر عورته فى الأزمان الأولى التى بدأها الإنسان الفطرى.

ومع التطور الحضارى للإنسان، أخذت نظرته للكساء تتطور لاحتياجه لما يكسبه المظهر اللائق، والقيمة الاجتماعية التى تلائم مستلزمات المجتمع ومتطلبات الحياة المتحضرة التى يعيش فيها، ويسعى لإبراز مكانته فيها بشتى الطرق.

ولقد فطن المصريون القدماء لذلك بدليل ما عثر عليه الباحثون من أقمشة فى مدينة الفيوم يرجع تاريخها إلى العصر الحجرى الحديث، مما يدل على أن بوادر صناعة النسيج بدأت تظهر عندهم فى نهاية هذا العصر.

وقد استعمل المصريون القدماء النباتات ذات الألياف الخشنة فى صنع المنسوجات وأهمها الكتان. أما الألياف الحيوانية فلم تكن صالحة لصنع الأقمشة لعدم طهارتها فى اعتقادهم. ولقد تأثر النسيج الفرعونى بعدة تأثيرات خارجية نتيجة حتمية للعلاقات التجارية بين مصر والدول المجاورة، كما تعرضت مصر لعدة غزوات أجنبية، تركت أثرا واضحا فى الناحيتين الصناعية والفنية، من أهمها، أنواع الألياف المختلفة التى استخدمت فى صناعة المنسوجات، والتى كان لها أثر كبير فى تغيير أنواع الملابس وأنماطها.

وجاء العصر البطلمى، فقلت أهمية الكتان بعض الشىء وإن كان قد بقى يحتل المكانة الأولى، ويليه الصوف فى الأهمية.

وكذلك عُرف الحرير فى ذلك العصر، وكان من أهم السلع التجارية فى الإسكندرية، كما تميزت هذه الفترة بظهور نوع جديد من المنسوجات يسمى «الزردخان Polymita».

وكان معروفا أن الرومان استخدموا الصوف والتيل والحرير والقطن فى صناعة الملابس وبعدهم الأقباط ووصلوا فى صناعة الصوف إلى أعلى درجات تقدمها فى العصرين السادس

والسابع الميلادى. واستمرت تنمو فى العصر الإسلامى، وأنتجت أقمشة صوفية يدخل فى نسيجها الكتان، وكذلك الحرير والقطن. كما كان يدخل فى خامة النسيج بعض خيوط الذهب والفضة عند نسجها.

وقد عرف العرب المنسوجات المصرية قبل الفتح الإسلامى، وقد ذكر المقريزى أن الهدية الثمينة التى بعث بها المقوقس إلى النبى ﷺ ومن بينها قماش منسوج فى مصر، وقد استعمل هذا القماش فيما بعد فى تكفين رفاته الطاهر.

وقد حرص الخلفاء جميعهم أمويون وعباسيون على أن يضمنوا لمصر احتكار نسيج كسوة الكعبة الشريفة مما ساعد على تطور هذه الصناعة المصرية كما كان من شأنه أن يكفل لها اطراد التقدم والرقى.

وفى أوائل العصر الإسلامى كانت المنسوجات تُصنع وفق الأساليب التى اتبعها الأقباط فى تلك الصناعة، غير أن أسلوبا إسلاميا صحيحا أخذ ينمو تدريجيا ويتطور، ويسود جميع البلاد التى خضعت لحكم البلاد. وقد استمر هذا الإنتاج الفنى للمنسوجات قائما حتى بعد دخول الإسلام، وازدهرت المنسوجات فى مصر العربية حتى بلغت قمة المجد.

ويمكن القول بأن كل ما أجراه العرب من تغيير فى زخرفة المنسوجات قد انحصر فى منع النساج من نسج الصور الدينية والرموز المسيحية، فنسجوا مع الزخرفة عبارات بالخط العربى تشعر بالدين الجديد. وهكذا يتجلى لنا ميلاد فن عربى فى زخرفة المنسوجات، يجمع بين الزخارف المصرية قبل الإسلام، وبين عبارات دينية مكتوبة بالخط الكوفى المنسوج، مع الاستغناء شيئا فشيئا عن الرسوم الآدمية والحيوانية والإكثار من الزخارف الهندسية والكتابية.

ولما انتشر الإسلام، وانقضت الفترة الأولى من تاريخه، حيث كان الزهد والتقشف طابعا للمسلمين فكانوا يكرهون الترف، ولا يحبون لبس الحرير أو استعمال الفاخر من الثياب.

وحين انقضى هذا العهد، لقيت صناعة النسيج تشجيعا خاصا فى البلاد الإسلامية المختلفة، ولاسيما حين انتشرت عادة الخلفاء والأمراء مكافأة رجال الدولة، وتقدير جهودهم بالخلع الثمينة، والملابس الفاخرة، وزاد الاهتمام بالملابس الحريرية وزخرفتها بشكل واضح، كان من أسبابه، أن الخلفاء والأمراء كانوا يتبارون فى إرسال الكسوة إلى الكعبة الشريفة من المنسوجات النفيسة التى كانت العناية بنسجها عظيمة جدا.

والواقع أن المسلمين أنشئوا عددا كبيرا من المصانع الجديدة للنسيج فى الأقاليم التى ضموها لجمهوريتهم حتى أصبحوا زعماء تجارة الحرير فى العالم خلال العصور الوسطى.

وأخذ النساجون العرب يقلدون الحرير الهندى فى دقة صنعه ورقته، حتى تفوقوا فى صنع نوع من الحرير الشفاف أطلقوا عليه اسم (موسلين) نسبة إلى مدينة الموصل، حيث كان يصنع. وقد وصف الكتاب هذا النوع من النسيج فقالوا، إن رقته بلغت حدا عظيما حتى إنه إذا بسط على الأرض وسقطت عليه قطرات الندى، يُصبح شفافا تماما إلى حد أن العين لا تستطيع رؤيته وسماه بعض الكتّاب «نسيج خيوط الهواء».

ولاشك أن إطلاق أسماء عربية على هذه الأنواع الراقية من المنسوجات وانتقال هذه الأسماء إلى اللغات الأوروبية، وهى غالبا أسماء المدن المنتجة دليل على تقدم هذه الصناعة عند العرب تقدما واضحا.

فالمنسوجات التى كانت تسمى دمقس "Damacks" اشتق اسمها من دمشق التى كانت رمز التجارة الإسلامية والتى كان العرب ينسبون إليها كثيرا من البضائع التى كانت تباع فيها أو تستورد منها، مع أنها كانت فى الحقيقة تصنع فى أقاليم أخرى من العالم الإسلامى.

وكلمة موسلين "Muslin" نسبة إلى الموصل كما سبق، وكان الإيطاليون فى العصور الوسطى يستوردون منها الحرير، ويسمونه بهذا الاسم وكذلك الأقمشة التى عُرفت عند الأوروبيين باسم جراندين "Grenadines" وهى التى اشتق اسمها من "Granada" أى غرناطة. وهناك أسماء أخرى أوروبية لأنواع من المنسوجات مشتقة من اللغتين العربية والفارسية.

وقد كانت الأقمشة الحريرية والكتانية على درجة كبيرة من الجمال فى العصرين العباسى والطولونى وكانت تصدر إلى سوريا والعراق. وقد عرف العالم الإسلامى فى العصور الوسطى نظاما خاصا فى مصانع النسيج، فلقد كانت هذه المصانع حكومية بحتة، أو تحت رقابة حكومية شديدة.

وكان هناك نوعان من مصانع النسيج **الأول** طراز الخاصة، وكان لا يشتغل إلا لرجال البلاط وحاشيته. **والثانى** – طراز العامة، وكان أيضا تحت رقابة الحكومة ولكنه ينتج لأفراد الشعب فضلا عن بلاط الخليفة إذا دعت الحاجة لذلك.

ولفظ «طراز» مشتق من الكلمة الفارسية (ترازيدن) بمعنى التطريز والنسيج، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو السلطان أو الحاشية، ولاسيما إذا كان فيها شىء من التطريز، وعليها أشرطة من الكتان فيها اسم الخليفة الذى نُسجت فى عهده، فضلا عن التاريخ وبعض

العبارات الدعائية. ثم اتسع معنى «الطراز» فى اللغتين العربية والفارسية حتى صار يطلق على المكان والمصنع الذى تنسج فيه مثل تلك الأقمشة.

هذا فضلا عن أن كلمة «طراز» تستعمل فى اللغة العربية بمعنى «نمط» للدلالة على الأسلوب الفنى فيقال مثلا «الطراز الإغريقى» – أو «الطراز المملوكى».

ولم يكن غريبا أن يُعنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة تخليدا لذكراهم، أو وثيقة لمن خلعت عليهم إظهارًا لرضا الأمير أو علامة على تولى إحدى الوظائف الكبرى فى الدولة.

كما ذاعت شهرة دور الطراز فى مصر بما أنتجته من المنسوجات الكتانية والحريرية التى صدرت منها فى العهد الإسلامى إلى البلاد الإسلامية كسوريا والعراق. كذلك جرى العمل فى دور الطراز تزيين الأقمشة المنسوجة من الكتان بزخارف من الحرير.

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين نُسج بمصر ثياب «**الشروب**» الرقيقة، كما نُسجت من خيوط الكتان منسوجات رقيقة تسمى «**بالقصب**»، وكانت تُصنع منه العمائم والطواقى وملابس النساء، وقد كان ينسج فى طراز الخاصة من خيوط الكتان والذهب نسيج خاص بالخلفاء دون غيرهم يسمى **بالبدنة**.

كما كان هناك نسيج آخر متموج متغير الألوان يسمى «**البوقلمون**» وتصنع منه كسوة السروج وأغطية المحاف الملكية.

ويذكر لنا «ناصر خسرو» – [وهو رحالة فارسى من بلاد خراسان، زار مصر فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ودون ملاحظاته ومشاهدته عنها، وعن المدن الأخرى التى زارها فى كتاب سماه «سفرنامة» أى قصة السفر. وقد ترجم هذا الكتاب المستشرق الفرنسى «شارل شيفر» إلى الفرنسية وصدر بباريس سنة ١٨٨١] – الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى أن «البوقلمون» نوع من القماش تنتجه مصانع «تنيس» يتغير لونه بتغير ضوء النهار ويصدره المصريون إلى بلاد المشرق والمغرب. وأن القصب الجميل الملون الذى تصنع منه ثياب النساء لا يوجد فى أى مكان آخر.

وفى العصر الفاطمى صنعت أنواع فاخرة من المنسوجات وتفوق ما صنع فى العصر العباسى وأصبحت الأقمشة الكتانية والحريرية فى غاية الرقة، حيث تحدثنا بعض المراجع أن صناعة النسيج بالقاهرة بلغت حدا من الرقة بحيث صار من الممكن سحب عباءة أو ثوب كامل خلال حلقة خاتم.

ومن مظاهر الاهتمام بصناعة النسيج فى العصر الفاطمى أن «صاحب الطراز» أى المشرف على شئون النسيج فى البلاد لم يكن يتولى أمرها إلا أحد كبار الموظفين المقربين من الخليفة.

وكانت الجلابيب والعمائم والأحزمة تُصنع من أقمشة غالية، تُزينها أشرطة مشغولة بالحرير، أخذت مساحتها تتسع حتى صارت فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) تُغطى معظم الأرضية الكتانية. ومن أجمل المنسوجات فى العصر الفاطمى، ملابس السيدات الموشاة بالقصب الملون.

فالنساج المصرى قد تفنن فى نسجها وزخرفتها بقدر ما أبدع الرسام فى رقتها. وكانت معظم الزخارف المنقوشة مذهبة أو باللونين الأحمر والبنى، وكان الصناع يستعملون القوالب الخشبية لطبع الزخارف على المنسوجات، ولم تكن «تنيس» وحدها ذات الشهرة فى صناعة المنسوجات فى مصر، بل وجدت إلى جوارها «**تونة**» حيث صنعت الكساوى الكتانية الفاخرة الخاصة بالكعبة الشريفة.

كما اشتهرت «**دبيق**» بمنسوجاتها الحريرية، واشتهرت «دمياط» بأقمشتها الكتانية البيضاء البديعة كما ذاعت شهرة مصانع أخرى بالإسكندرية والفسطاط وفى مصر العليا مثل «الأشمونين والبهنسا».

وتدل قطع النسيج التى عثر عليها فى حفائر الفسطاط على قيام صناعة ناجحة للنسيج بمصر فى العصر الإسلامى، كانت تضطلع بإنتاج الكثير منه دور الطراز الخاصة والحكومية التى كان يعمل بها خيرة النساجين والرسامين، وكان إنتاجها بمثابة النموذج الذى يحتذى به مصانع النسيج العامة المنتشرة فى مدن مصر المختلفة.

ومن هذا ندرك مدى الاهتمام بصناعة النسيج فى مصر فى مختلف عهودها ولاسيما فى العصر الإسلامى الذى كان حكامها فيه يهتمون بهذه الصناعة اهتماما كبيرا.

المنسوجات الأيوبية والمملوكية :

كانت أقمشة العصرين الأيوبى والمملوكى أكثر بساطة إذا ما قورنت بأقمشة العصر الفاطمى المطرزة بخيوط الذهب والحرير بمختلف الألوان. هذا وقد أضمحل نسيج الكتان بمصر فى عصرى الأيوبيين والمماليك ولكن زادت العناية بنسيج الحرير وتطريزه.

وقد تنوعت طرق الإنتاج. فمنها ما هو منسوج من القطن أو الحرير أو الصوف ومنها ما هو مطرز بخيوط حريرية تُشكِّل العناصر الزخرفية فوق ثوب القماش مباشرة أو فوقه بعد

تبطينه بطبقة من القطن أو الصوف المندوف توضع بين طبقتين من القماش قبل تطريزه، ومنها ما هو مطبق بأن تثبت قطعة من القماش ذات زخرفة معينة على قطعة أخرى مغايرة لها فى اللون أو الخامة، وهى طريقة لازالت مستعملة وتعيش فى حى «الخيامية» بالقاهرة حتى الآن.

ومنها ما هو مطبوع بقوالب خشبية تُنقش فيها الزخارف بالحفر الغائر، وتُغمس القوالب فى الأصباغ قبل الختم بها على الثوب المنسوج فى أماكن متعددة فى نظام زخرفى بديع.

والحق أن نسيج الحرير فى عصر المماليك تأثر إلى حد كبير بمنتجات الشرق الأقصى التى أدخلها المغول فى العصر الإسلامى. ولا ننسى ما تذكره المصادر التاريخية من البعثات التى تبودلت بين المغول والمماليك لتحمل ما خف حمله وغلا ثمنه من المنسوجات النفيسة.

وقد ازدهرت هذه المنسوجات فى مصر فى عهد المماليك وأبدع ما يُعرف منها يرجع إلى القرنين السابع والثامن الهجرى.

ويمكن تعدد بعض أنواع الأقمشة الفاخرة فى مصر أيام المماليك، حيث كانت تصنع منها الملابس، وكانت إما من الصناعات المحلية، وإما مستوردة من الخارج.. من أوروبا وغيرها، وحتى من بلاد الصين.

وكان لهذه الأقمشة أسواق خاصة، وتجار فى مصر تسمى «سوق الجوخيين».

ومن هذه الأقمشة، قماش الحرير، أو رقيق الكتان والقطن المصقول «النصافى» والأقمشة الكتانية الرقيقة التى تدخلها خيوط حريرية أو مذهبة «شرب» حيث يوجد منه الشفاف جدا.

وكانت هناك أقمشة حريرية تُصنع فى الإسكندرية سميت «الإسكندرانى» أو «المنمر» وهو نوع من الحرير ينسج بالخيوط المذهبة.

وكانت صناعة النسيج بدورها سببا مباشرا لإمداد الخياطين والخلعيين بما يلزمهم من خامات غنية بزخارفها وخيوطها لتنفيذ الأزياء الحربية والمدنية والدينية معا، بل لولا توفر هذه المنسوجات المملوكية المتنوعة لما أمكن لبيوت الأزياء فى مصر أن تنتج هذا الحشد الوفير من القمصان والسراويل والأقبية والكوامل والسلاريات والفرجيات والشاشات والطواقى والأحزمة وغيرها من أزياء الرجال والنساء فى مجتمع المماليك. ولسنا بحاجة للإشارة إلى أهمية مصر كمركز للنسيج منذ فجر الإسلام، ولكن الذى يجب أن نؤكده هو أن إنتاج الأقمشة المنسوجة والمطرزة كان من أبرز الصناعات فى خدمة الأزياء، والموضات المملوكية، فقد نجحت مصر فى إنتاج نوع من الأقمشة المطبوعة بزخارف نباتية، وكتابات نسخية عن طريق القوالب الخشبية المحفورة – كما سبق، ومن بين هذه المنسوجات الحريرية، النوع المعروف باسم «الطردوحش»، وقد أشارت بعض المراجع التاريخية إلى الأقبية ذات الزخارف من الطردوحشن والأشرطة الموجة بقصب مذهب من عمل الإسكندرية. ويحتفظ متحف

الفن الإسلامى بقطع كثيرة من هذا النوع، كما أشاد «القلقشندى» بشهرة الإسكندرية فى نسيج الأقمشة المملوكية الحريرية حيث يذكر «وفيها ينسج القماش الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا وإليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر وتميز من قماشها جميع أقطار الأرض، وأمدنا النويرى بوصف رائع لطراز أو مصنع نسيج الإسكندرية أثناء زيارة السلطان الأشرف شعبان أحد سلاطين المماليك الذى «رأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان؛ المختلفة الألوان.

وكان للنشاط التجارى فى عصر المماليك فضل كبير فى اتصال مجتمع الإسكندرية والقاهرة بكثير من أزياء المجتمعات الأوروبية والهندية والإيرانية والصينية عن طريق هؤلاء التجار الذين تولوا نقل المتاجر من المنسوجات الحريرية والجوخ والمخمل (القطيفة) بين الشرق والغرب، وبيعها فى الفنادق والخانات والوكالات والقياصر والأسواق المصرية المنتشرة فى المدن والعواصم فتركوا لنا نوعا من الملابس الفرنجية التى شاعت فى عصر المقريزى.

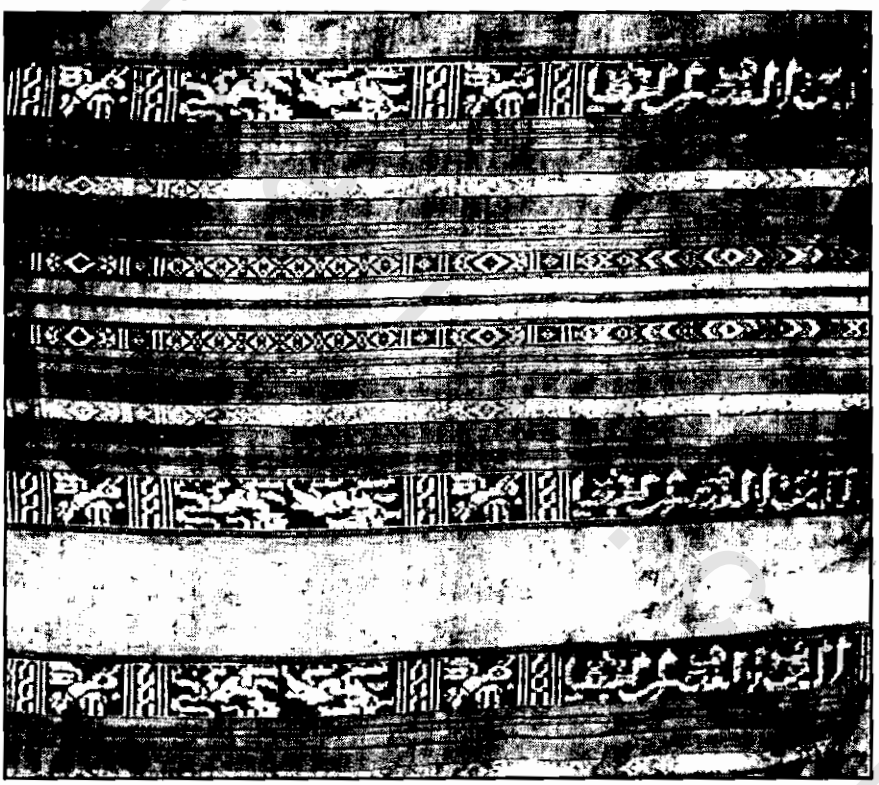

قطعة من النسيج عليها كتابات ورسوم حيوانات — من العصر الفاطمى.

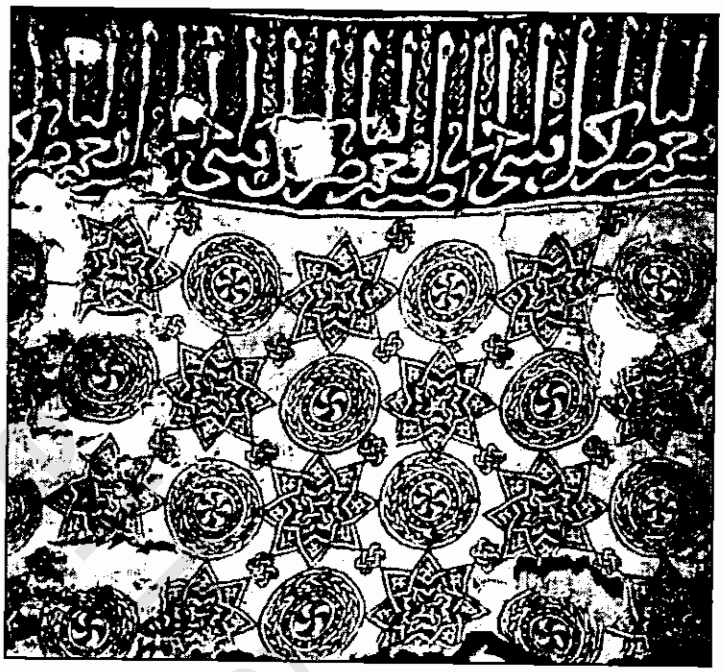

قطعة من الكتان المطبوع عليها زخارف وكتابات – من العصر المملوكى.

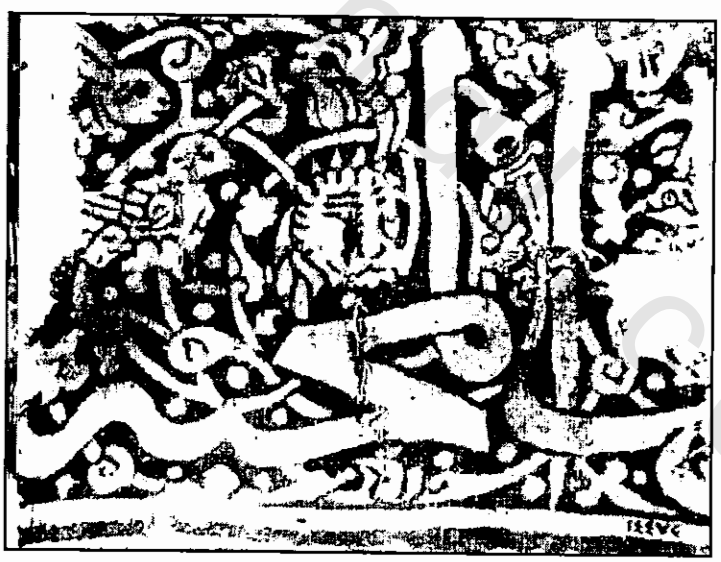

قطعة من الكتان المطبوع عليها كلمة المحبة من العصر المملوكى.

الفصل الثالث

الألياف المستخدمة فى المنسوجات المصرية

تاريخها وتطورها

إن المنسوجات التى استخدمت فى مصر على توالى العصور حتى الحكم العثمانى لم تتجاوز ألياف الكتان والصوف والحرير والقطن.

فيجب أن نذكر بإيجاز تاريخ كل منها، واستعمالها فى المنسوجات والعصور التى ازدهر فيها استخدام بعضها والظروف التى ساعدت على اختفاء أو قلة استعمال بعضها الآخر حتى ما بعد الحملة الفرنسية. كما يجب الإشارة إلى مدى استخدام كل منها فى صناعة ملابس المصريين وتأثيرها على الأزياء والأنماط المختلفة التى ارتدتها المرأة القاهرية.

الكتان :

الكتان هو الخامة الأولى التى استخدمها المصريون لصنع منسوجاتهم، فقد ثبت أن زراعة الكتان، واستخدام أليافه كانت قائمة بمصر منذ عصر ما قبل الأسرات.

وقد اكتُشِفت أقمشة كتانية ترجع إلى العصر الحجرى الحديث فى الفيوم، كما وجدت فى مقابر قدماء المصريين أنواع تشبه الخيش أو قماش (الكانفس Canvas) فى ملمسه، كما نسجوا منه منسوجات فاخرة شفافة أطلقوا عليها كلمة «بوسوس أو بيزوس Byssus» وهى كلمة إغريقية تقابل فى المصرية القديمة «نيسوت» أو «النسيج الملكى».

كما نسج المصريون القدماء من خيوط الكتان منسوجاتهم الوبرية، وظلت المنسوجات الكتانية موضع تفضيل وتقديس قدماء المصريين طوال عهودهم التاريخية، لاعتقادهم بطهارتها، وقداستها حتى كانوا يعتبرونه رداء الآلهة.

كذلك كانوا يستخدمون تلك المنسوجات كمنح وأوسمة يخلعونها على خاصتهم من الأمراء والنابغين.

ولم تكن صناعة الكتان مقصورة على حاجة المصريين فقط، بل كانوا يصدرون منها إلى الأمم المعاصرة لهم.

وفى أواخر عصر الأسرات الفرعونية تدهورت زراعة الكتان، وصناعة نسجه فى مصر، ولكن سرعان ما ازدهرت من جديد عندما دخلت مصر فى حكم البطالسة.

فقد أقام ملوك البطالمة مصانع خاصة للمنسوجات الكتانية بجانب ما كانت تنسجه منه المعابد المصرية، وخاصة ما كان يسمى بنسيج «البرسوس» الذى كانت تُصنع منه ملابس الكهنة والآلهة، ولفافات المومياء، كما كانوا يقدمونه للتجار العرب لقاء حصولهم على العطور اللازمة لطقوسهم الدينية.

ولما كان اهتمام الرومان بالمنسوجات الكتانية كبيرا، فقد ازدهرت صناعتها بالإسكندرية، كما كانت أيضا مركزًا هامًا لصناعة الأزياء المصرية المستخدمة فكان يُصنع بها طراز للملابس على اختلافها.

واستمر النساجون الأقباط يفضلون استخدام الكتان فى كثير من منسوجاتهم لتانتها ووفرتها. كما انتشرت صناعته فى طول البلاد وعرضها كحرفة شعبية يمارسها المصريون خفية عن حكامهم من الرومان ليصنعوا من منتجاته أغلب ما يحتاجون إليه من ملابس وبسط وستور، كما انتشرت صناعته فى كثير من المدن المصرية حتى الحكم العربى سنة ٦٤١ م.

وأخذت صناعة المنسوجات الكتانية فى الازدهار إلى أن بلغت ذروة مجدها إبان عهد الدولة الفاطمية، ثم عادت وتخلفت، وفقدت قدرا كبيرا من العناية التى كانت توجه إليها منذ آخر هذه الدولة، وكذا ما مر بها من أحداث واضطرابات سياسية أيام الأيوبيين والمماليك.

وبالرغم من ذلك، فقد نالت مصر تحت حكم المماليك مكانا مرموقا فى صناعة المنسوجات الكتانية أيام حكم سلاطين دولة بنى قلاوون (١٢٧٩ - ١٣٩٠ م) وفى عصر الناصر محمد بن قلاوون بوجه خاص.

وما أن دخلت مصر تحت الحكم العثمانى حتى بدأت تتدهور صناعة المنسوجات الكتانية، كما تدهورت صناعات كثيرة غيرها، بسبب قيام سليم الأول بجمع رؤساء الصناعات المشهورين بمهارتهم فى العمل من كل الطوائف، ونقلهم إلى القسطنطينية.

الصوف :

تحدث الكتّاب والمؤرخون عن الأغنام المصرية بأنها لا تنتج صوفا صالحا للنسيج، لذلك لم يُعثر على ملابس صوفية عند قدماء المصريين، بينما تدل الآثار على وجوده بمصر فى عصر ما قبل الأسرات وهو ما يُعرف بالكبش الوثّاب «الكبش فنريش».

وبازدهار تربية الأغنام المنتجة للصوف بمصر فى عصر البطالمة انتشرت صناعة نسيج الصوف انتشارا كبيرا، وذلك لعنايتهم بانتقاء السلالات الممتازة لإنتاج الصوف.

وظلت صناعة الصوف بمصر يرعاها البطالمة حتى جاء عام (٣٠ ق. م) فدخلت فى حوزة الرومان الذين اهتموا بصناعة الصوف بمصر اهتمامًا كبيرا، لا يقل عن اهتمام الإغريق، والمعروف عنهم اهتمامهم بتربية الأغنام بقصد الإفادة من أصوافها.

وعندما ظهرت الديانة المسيحية بدأ يتلاشى مبدأ تحريم دخول المعابد بالملابس الصوفية، وبذلك ازداد استخدامه فى صناعة الملابس.

وتدل منسوجات ذلك العصر على كثرة استخدام الصوف الملوّن فى صنع المنسوجات المزخرفة على اختلاف طرق نسجها. ولعل ذلك راجع إلى سهولة امتصاص الصوف لألوان الصباغة المختلفة، مع ليونة أليافه، وثبات ألوانه.

وعندما فتح العرب مصر سنة ٦٤١ م ظلت مدن مصر العليا تنسج الصوف، وقد عنى العرب كذلك بتربية الأغنام عناية واضحة، كما استخدم الصوف مع الحرير أيام هشام بن عبد الملك ابن مروان فى عمل نسيج سداه من الحرير ولحمته من الصوف سُمى «بالخز».

ومن المعروف أن الأقمشة الصوفية التى كانت صناعة مزدهرة فى مصر عصر الرومان ثم الأقباط وصلت إلى أعلى درجات تقدمها فى القرنين السادس والسابع، واستمرت تنمو فى العهد الإسلامى، وأنتجت أقمشة صوفية، يدخل فى نسيجها الكتان. كما كانت خامة النسيج عند نسجها يدخل فى بعض خيطان اللحمة أو السداة خيوط من الذهب أو الفضة.

ويبدو أن مصر فى العصر الإسلامى والعصور التالية لم تهتم بأمر تحسين أصواف الأغنام المصرية، كما كان الاهتمام بها من قبل، لذلك ظل الصوف المصرى خشن الملمس، وانحصرت صناعته فى الوجه القبلى، ولا زالت حتى الآن صناعة الأكلمة والبسط والبطاطين من أهم تلك المدن.

كذلك لا يوجد ما يثبت فى أيام الحكم العثمانى أى اهتمام بصناعة الصوف أو تربية الأغنام.

الحرير :

تفيد آثار قدماء المصريين بأنه لم تكن لهم أى دراية أو معرفة بصناعة المنسوجات الحريرية، وبالتالى لم يستخدموها فى صنع ملابسهم، وظل الحال كذلك حتى دخلت مصر فى حوزة

البطالمة، بعد فتح الإسكندر الأكبر لها سنة ٣٣٢ ق. م، فكانت تجارة الحرير من أهم السلع بالإسكندرية.

وبعد مجئ الرومان إلى مصر، انتشرت بها صناعة نسيج الحرير، وعملوا على الارتقاء بها.

وفى العصر المسيحى لم تلق خامة الحرير إقبالا كبيرا من قبط مصر، فقد اعتبروا أن الحرير رداء النساء، وأن ارتداءه مناف للرجولة.

وبعد الفتح العربى لمصر سنة ٦٤١ م لم تنل خامة الحرير أو صناعة نسيجه أى تقدم على الإطلاق، بل زاد تأخرًا فى هذا المجال، ويرجع ذلك إلى عدم درايتهم بتلك الصناعة والفنون من ناحية، ولما كان عليه الحال زمن الخلفاء الراشدين من زهد وتقشف من ناحية أخرى، ولأن الإسلام حرم على الرجال لبس الحرير من ناحية ثالثة.

وحين بدأ عهد بنى أمية، وزاد اختلاط العرب بالروم والفرس، وأخذوا يتأثرون بمظاهر الترف والرفاهية لديهم، بدأت صناعة الحرير تنهض مرة أخرى.

ولقد ساعد على شيوع استخدام الحرير بمصر وارتقاء صناعته ومنسوجاته ما كان من اتصال بين المسلمين والصينيين، وبذلك توفر خام الحرير فى مصر فى العصر الإسلامى نتيجة للعلاقات التجارية بينهما.

وكان الصينيون أول من عرفوا الحرير منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد فرضوا عقوبات مشددة تصل إلى حد الإعدام لأى مواطن يُفْشِى سر صناعته، حتى يستحوذوا على إنتاجه وتجارته، حتى تمكنت زوجة أحد الفارسيين من تهريب بعض بيض دود القز فى قبعتها حين كانت مسافرة إلى وطنها.

ومنذ ذلك الحين عُرف فى بلاد الفرس، وبدأ ينتشر فيها، ومنها انتقل إلى آسيا الصغرى فى عصا لأحد الكهنة، ومن هناك انتقل إلى أوروبا ثم شاعت بعد ذلك تربية دودة القز، وانتشر استعمال الحرير فى القرن الخامس قبل الميلاد.

ويعتبر العصر الفاطمى عصرا ذهبيا لنسج الحرير بمصر. نتيجة علاقة الصين بمسلمى مصر تجاريا، فقد استخدمه المسلمون فى كثير من الحياة المختلفة، فصنعت منه الملابس التى كان يخلعها الخلفاء على كبار رجال الدولة لتكون تقديرا وتكريما لهم بمثابة الأوسمة والنياشين فى الوقت الحاضر.

وقد استخدم النساء المسلمات الملابس من الحرير دون الرجال حيث كان مباحا لهن استخدامه دون قيد ولا شرط، ومن المرجح أن المناسج المصرية لم تنتج نسيجا من الحرير الخالص قبل عصر المماليك إذ لم يُعثر على قطعة سداها ولحمتها من الحرير إلى ما قبل عصرهم، فقد كان الشائع أن تصنع اللحمة من الحرير، والسداه من الكتان أو القطن.

وقد وجدت بعض الآثار التى تؤيد أنه صنعت منسوجات من الحرير الخالص فى عصر المماليك وأقبلت النساء على ارتداء الحرير بشكل واضح فى ذلك الوقت، فكن يصنعن منه العصابات المُقنزحة (أى القصيرة)، ثم الطويلة التى أمر بها «يشبك الجمالى» محتسب القاهرة وذلك عند خروجهن من بيوتهم.

ولقد ازدهرت تجارة الحرير فى عصر المماليك البحرية، ولكن صناعة المنسوجات الحريرية لم تصل إلى ما كانت عليه فى العصر الفاطمى، بل فقدت كثيرا من أهميتها، وعِظَم شأنها، لكثرة الضرائب فى عصر الأيوبين والمماليك.

ولكن بالرغم من ذلك تنسب بعض الأقمشة الحريرية إلى أسماء المدن التى كانت تنتجها.

فالأقمشة التى كانت تُعرف باسم «فستيان Fustian» مثلا، اشتق اسمها من كلمة «فسطاط».

كما اتخذ بعض سلاطين المماليك من المنسوجات الحريرية ملابس لهم يرتدونها فى المناسبات والمواكب. كذلك استخدم الحرير مع الذهب وبعض الخامات الأخرى فى نسج بعض المنسوجات المملوكية.

كما استخدمت الخيوط الحريرية بكثرة فى تطريز زخارف بعض المنسوجات خصوصا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى.

وكان الحرير الخام أيام المماليك الشراكسة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى يستورد من بلاد فارس.

وعندما أصبحت مصر ولاية عثمانية (١٥١٦ - ١٨٠٥ م) تدهورت صناعة المنسوجات الحريرية بها، وكاد ينعدم الإقبال عليها نتيجة لما أصاب البلاد من تدهور فى الصناعة والتجارة، وذلك لنقل معظم الصناع المهرة إلى القسطنطينية كما سبق.

وبذلك تدهورت صناعة المنسوجات الحريرية وندر الإقبال على استخدامها، شأنها فى ذلك شأن جميع الصناعات الهامة التى قضى عليها العثمانيون فى مصر بنقل من نقلوهم من رؤساء الحرف ومهرة الصناع دون اهتمام بمستقبل البلاد، أو العمل على تنمية ما فيها من صناعات قائمة، أو الرغبة والحرص ولو على بقائها على ما هى عليه.

القطن :

كان القطن معروفا منذ القدم، وخاصة بالهند، وكان نباته يسمى «بشجر الصوف».

وقد وجدت بعض بذوره بالمقابر المصرية القديمة، وذلك يؤكد ما قاله هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد من أن الملك أحمس الثانى من الأسرة السادسة والعشرين (سنة ٥٦٩ – ٥٢٥ ق. م) أهدَى قميصين من الكتان مطرزين بالقطن لملك الإغريق. وذكر هيرودوت أيضا أنه لم يسمح للكهنة المصريين بارتداء الملابس القطنية، وهذا أحد الأسباب فى عدم وجود أقمشة قطنية بين آثارهم، والسبب الآخر أنهم لم يكونوا يستعملونها فى تكفين الموتى بل يستعملون الكتان.

وحين حكم البطالمة مصر كانوا على معرفة بالقطن ونسيجه منذ أن فتح الإسكندر المقدونى بلاد الهند فساعد ذلك على شيوع نسيج القطن وارتداء منسوجاته.

وكان البطالمة يستوردون أليافه من الهند لتنسج فى المناسج المصرية. وظل القطن ينسج بمصر بعد أن دخلت تحت حكم الرومان، كما أدخلت زراعته بها، وكانت بلاد النوبة موطن زراعته ونسجه إبان حكم مصر.

ولم يكن حكام مصر من الرومان يُقبلون على نسيجه أكثر من إقبال المصريين عليه، إذ كان يلى منسوجات الحرير والكتان والصوف فى الأهمية. وكذلك كانت مصر فى عهدهم تصدره إلى الخارج.

وعندما خضعت مصر لحكم العرب، أخذت صناعة المنسوجات القطنية تجد اهتماما أكثر من ذى قبل، حتى ليمكن القول بأن الفضل فى زراعة القطن ونسجه والوصول به إلى درجة كبيرة من جودة الصناعة وإتقانها ونشره فى بلاد كثيرة يرجع إلى الإسلام فى مصر، الذى رغب فيه كملابس بعيدة عن الترف والخيلاء فى الوقت الذى نفر فيه من الحرير، واعتبر ارتداء المسلم له معصية يحاسب الله عليها.

وقد جاء فى كتاب الأستاذ سيد محمود خليفة (تاريخ المنسوجات): أنه ورد بكتاب «مناهج الفكر، ومباهج العبر عام ١٣٠٦ م» ما يؤكد زراعة القطن بمصر فى عهد الناصر بن قلاوون، ويقول، وحدثنا المقريزى بخططه فى القرن الخامس عشر الميلادى عن زراعة القطن بمصر.

وكان القطن يُنسج ببعض المدن التى اشتهرت من قبل بصناعة المنسوجات الكتانية مثل «تنيس، والإسكندرية، ودمياط، ودبيق» حيث كان يُصنع بها من نسيج القطن ما يطابق أحسن أنواع نسيجه التى تطلب بكثرة فى الشرق.

وكانت مصر تصدر القطن إلى مرسيليا أثناء الحروب الصليبية وظلت تنتجه، وتنسجه حتى بعد أن خضعت لحكم العثمانيين.

ونشطت صناعة المنسوجات القطنية على اختلافها فى أواخر القرن التاسع عشر إذ كان محصول القطن يُستهلك محليا فى صنع الأقمشة الشعبية، وفى التنجيد، كما كانت مصر تستورد من الهند أو أوروبا ما يلزمها من خيوط القطن الجيد، لتنسجها المناسج المصرية أقمشة دقيقة، كما كانت تستورد القطن من سوريا وآسيا الصغرى وغيرها ليغزل ويُنسج بها.

ومن هذا نرى أن القطن كان من أكثر الألياف استخداما فى الملابس بين مختلف طبقات الشعب فى أواخر القرن الثامن عشر، وذلك لسهولة استيراده من الخارج، بجانب زراعته فى مصر ليغزل وينسج بها، علاوة على ترغيب الدين فى استعماله تجنبا للمعصية وارتكاب الحرام كما هو الشأن بالنسبة للحرير.

obeikandl.com

الفصل الرابع

(النسيج - أنواعه - صناعته - تجارته)
فى أواخر القرن الثامن عشر

كانت مصر على مر العصور معروفة بإنتاجها النسجى، وكان الإنتاج فى المراكز الرئيسية للصناعة يزيد أحيانا عن حاجة السوق المحلية، ويعد للتصدير إلى الخارج، إلى أن كان العهد العثمانى الذى ضعفت فيه جميع الصناعات بما فيها صناعة المنسوجات، فبدأت مصر تستورد منها الكثير، وخاصة الأقمشة الفاخرة التى كانت تصنع منها ملابس الحكام وأعيان البلاد. أما الأقمشة الشعبية الرخيصة فبقى إنتاجها موزعا فى مختلف أنحاء البلاد.

ومع ذلك تخصص عدد من المدن فى إنتاج أصناف معينة ذاع صيتها، فكان معظم إنتاج الصعيد من المنسوجات القطنية، بينما اشتهرت بعض بلاد الوجه البحرى ومنطقة الفيوم بصناعة الكتان، فى حين كانت صناعة الصوف قائمة فى القاهرة والفيوم وما بينهما.

كما نجد أهم مواقع إنتاج الحرير فى شمال الوجه البحرى وبخاصة فى دمياط، والمحلة الكبرى، نظرا لسهولة استيراد الحرير الخام من سوريا، وملاءمة تلك المناطق للتصدير إلى أسواق الشرق الأدنى.

ولم تتوقف حركة التجارة على الشرق الأدنى فحسب بل كانت تجئ القوافل من السودان، ودارفور حاملة العاج والصمغ العربى، والتمر هندى، والجلود، وقرن الخرتيت والشب والنطرون، لتعود محملة بأنواع مختلفة من المنسوجات المصرية بجانب الحاصلات المختلفة.

وكانت القوافل تجئ من «فزان» وبلاد المغرب حاملة الأصواف والشيلان البيضاء لمصر وكذلك الطرابيش والأحذية، والأردية الصوفية المعروفة «بالبرانس» وكذلك أغطية الصوف المعروفة بالأحرمة.

كما كانت مصر تستورد من أوروبا الأجواخ والقطيفة والحرير والساتان والورق والجواهر والحلى.

«وكانت الأقمشة المستوردة تباع فى «الفندق» أى «الخان» أو الوكالة، وهو رواق مغطى يحيط به عدد من الحجرات يحتفظ فيها التجار ببضائعهم» ومن أهمها سوق الحمزاوى «أو سوق القماش».

ومن أهم منسوجات القرن الثامن عشر، المنسوجات القطنية، فقد كان القطن المصرى يزرع فى بعض جهات الوجه البحرى، وكان قطن الوجه القبلى ينسج فى مصانع الأقمشة فى القطر المصرى.

وكان يُباع فى المكان الرئيسى الذى يحمل اسمه «ميدان القطن – أو سكة القطن» بالقاهرة.

وكان لنظام الطوائف بعض المزايا فى ترقية شئون الصناعة والصناع، وتعليم المبتدئين منهم أسرار الصنعة فكان لكل صناعة مدة تمرين يتدرب العمال خلالها على العمل فيها.

وكان الجوخ يُصنع فى حى يُطلق عليه «حى اللبودية El- Leboudyeh»، وكان يُباع فيه أنواع مختلفة من الصوف يتفاوت سمكها حتى كان يُصنع منها البرادع للخيل، كما كان منه نوع يستخدم غطاء للرأس مثل «الطاقية» التى يلف عليها الشال، كما صُنع منه الطربوش.

كذلك كانت هناك صناعة اللباد ومنه كانت تُصنع الطرابيش واللبد، وقد أنشأ الفرنسيون مصنعا للجوخ وآخر لصنع القبعات، وسبب ذلك انقطاع ورودها بسبب الحصار البحرى أثناء حكم «مينو» ثالث قادة الحملة الفرنسية فى يناير سنة ١٨٠١ م.

وعارض أعضاء اللجنة الإدارية قبول العمال المصريين فى هذا المصنع بحجة الضرر الذى يلحق الصناعة الفرنسية إذا عرف المصريون أسرارها.

وقد جاء فى مجلة الأستاذ سنة ١٨١٢ م جـ ٥ صـ ١٠٥ أن الحملة أحدثت بالبلاد ورشة للبفتة والجوخ فى بولاق وواحدة فى شبرا لعمل الشيت البصمة «أى المطبوع عليه بالنقش. ولم يراع الفرنسيون مصلحة مصر وتطورها، بل رفع منتجاتهم واستغلال ما فيها من خامات لتشغيل رجالهم.

وكانت صناعة الصوف منتشرة منذ زمن بعيد فى الوجه القبلى، واشتهرت محافظة أسيوط للأكلمة والسجاجيد، كما نسج بها نوع من المنسوجات الصوفية الخشنة استخدمه الريفيون فى صنع الزعابيط، وينسج على أنوال يدوية تشبه إلى حد كبير «نول الحفرة الذى استخدمه قدماء المصريين. ومن الأقمشة الصوفية التى أنتجت أنواع ذات ألوان داكنة وخاصة البنى منها وهو اللون الطبيعى للصوف فى أغلب الأحيان، ويُصنع منه «البشت Bieth». وكذلك يُصنع منه

«العباءة» يرتديها الرجال والصبية، ويستخدم لها نوع من الصوف المصبوغ باللون الأسود يتخلله بعض الألوان.

وهناك نوع آخر من خليط القطن والحرير يسمى «الشاهى» (نسبة إلى الشاة، إما لكونه كان يُصنع للشاه وإما لكونه كان يُصنع ويُباع لحسابه).

وقد كتب بعض رجال الحملة الفرنسية عما شاهدوه فى هذا المجال - فكتب «جالوا Jallois» أحد مهندسى الحملة الفرنسية رسالة عن رحلته فى الدلتا، وصف فيها المحلة الكبرى، وذكر صناعة الحرير بها، وقال إن معظم الحرير الذى يلبسه النساء فى مصر - يُصنع فى مصانع المحلة الكبرى ويُصنع فيها أيضا المناديل التى تُغطى بها النساء رءوسهن، والقمصان والبشاكير. كما يُصنع فيها أيضا ستاير الشبابيك وأغطية المقاعد والأرائك والوسائد وأغطية الموائد الموشاة بأسلاك الذهب والفضة والأحزمة الحريرية والملاءات المسماة بالملس - قال ذلك المسيو «جيرار Girard» وكيل إدارة الرى فى عهد الحملة الفرنسية.

ومما كتبه رجال الحملة يتضح كذلك أن مصانع النسيج بالقاهرة كانت ما بين ٣٠، ٣٥ مصنعا لغزل التافتاه والحرير والقطن. وكذلك الكريشة و «الدرية أو الدروة» تصنع منه الأشرطة والشيلان وكان عرضه لا يتعدى نصف ذراع تقريبا، وربما استخدم هذا ليلف حول أغطية الرأس - كما كان يُصنع الشاش الحريرى الخفيف (الخز أو القز Gaze) والشيلان الحريرية الحمراء والمختلفة الألوان، وقماش الموسلين ومناديل اليد البيضاء والزرقاء.

وكان التطريز من الصناعات التى على جانب كبير من الإتقان، وكان المطرزون المصريون موضع إعجاب الإفرنج ولاسيما تطريزهم للحرير والجوخ والموسلين وتطريز الجلود بأسلاك الذهب والفضة.

وهؤلاء المطرزون كانوا يسمون «الكبورجيه El Goubourgueh» وكانوا يشغلون دكاكين كبيرة متعددة.

وبجانب هؤلاء الكبورجية، كان هناك العقادون المصريون الذين برعوا فى صناعتهم براعة فائقة، فكانوا يصنعون القيطان (الكردون) من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة، كما يصنعون أيضا الشراريب من الحرير وأسلاك الذهب والفضة أيضا. وبينما يختص العقادون فى إنتاج الأنواع الحريرية ينفرد الحياكون بإنتاج أنواع قطنية، وكانوا يتفننون فى إنتاج مختلف الأشرطة المنبسطة منها والمجدولة (المستديرة).

وكان صناع الشراريب الحريرية والفضية والذهبية يُسمَوْن «بالأرمجية»، والعمال الذين يطرزون بالفضة أو الذهب اسم القصبجية. وكانوا فى الغالب من القبط.

أما صباغة الأقمشة - فبالرغم من أنها من الصناعات الشائعة إلا أنها كانت غير متفنة. وإن كان قد وُجد بمصر معامل عديدة لتبييض الأقمشة وتلميعها، بالرغم من أنها تعمل بطرق بسيطة بدائية.

وكانت الصباغة المستخدمة فى ذلك الوقت هى النيلة والحناء والبليجة والبكم.

(وهو خشب كانت تستخرج منه صبغة حمراء مائلة للسواد)، وكان لهذه الصبغات مصادر متعددة، حيث تأتى البليجة (وهو اللون الأصفر) من نبات يكثر بالعطيفية. أما الحناء فتكثر فى مديرية الشرقية التى تصدرها إلى كافة الجهات الأخرى.

واستكمالا للحديث يجب الإشارة لصناعة الجلود، فقد كان «المدابغية» يزاولون مهنة دباغة الجلود فى أحواض متسعة، وينتجون أنواعا إسفنجية من الجلد، تسد حاجة السوق المحلية، إذ يستخدمها صناع الأحذية، والبرادع والقِربَ فى عمل الأحذية والبرازع بكافة أنواعها، ثم القِرَب وأقساط الزيت.

وبوصف هذه الصناعات بإيجاز، فإن لها اتصالا مباشرًا بالأزياء حتى يمكن عن طريقها، التحدث عن الأقمشة المستعملة فى ملابس المرأة فى تلك الفترة، وأنواع التطريز الذى استخدم لزخرفتها والألوان والصبغات المستخدمة، وكذلك أنواع الجلود وصناعتها فى الأحذية.